طريقة الحكماء المحدثين في علم الكلام عند الإمام السنوسي

الربيع ميمون
جامعة الجزائر

طريقة الحكماء المحدثين في علم الكلام عند الإمام السنوسي

الربيع ميمون
جامعة الجزائر

1 إن الشّبهات التي أثارها بعض المسلمين عن حسن نية أو غيرها حول عقيدة الإيمان بالقدر خيره وشره في زمان النبي عليه الصلاة والسلام، وفي عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، شبهات كانت من الأسباب التي جعلت فرق القدرية والجبرية والمرجئة تظهر، بعد حكم هؤلاء بقليل، هذا ولقد كانت فرقة القدرية بالخصوص هي التي مهدّت لظهور مدرسة الاعتزال، التي كانت بما تحتوي عليه من التناقضات النظرية سببا في ظهور مدرسة الإمام أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه، وهذه هي التي أخذ بها العلماء السنّيّون في جملتهم وعملوا بكل ماأوتوا من فهم لَدُنّي دقيق على نشرها بين المسلمين في مشارق الارض ومغاربها، وهي ايضا أقوى مدارس الفكر الإسلامي بعلمائها وفتوحاتهم الرائدة التي تثيري الفكر وتجدّده، ولكن من غير ان تنحرف عن سواء السبيل. وإنه ليمكننا ان نتيّقن ممّا نقوله اذا عزفنا انّ من اعلامها الإمام الباقلاني (ت.403) وأبا إسحاق الاسفراني (تـ.408) وأبا المعالي الجويني (تـ478.) وأبا حامد الغزالي (تـ.505) والإمام القشري (تـ.514)، والفخر الرازي الملّقب بسيد الحكماء المحدثين (تـ.606) وابن خلدون (تـ.808) ثم محمد بن يوسف السنوسي (تـ.895) في القرن الخامس عشر للميلاد.

وهو عالم تلمسان والجزائر وعالم المسلمين في عصره ومن بعده. وهو أستاذهم في علوم عقيدتهم لأنه كان يعرفها في أعماقها ويعرف كيف يعلمهم إياها.

وهو من بعد هذا الحلقة الأخيرة أو من الحلقات الأخيرة في سلسلة علماء الأشاعرة الذهبية.

2 : - وإنه ليمكن ان يتبّين لنا مقامه رضي الله عنه اذا عرفنا ان أتباع الإمام الأشعري ساروا على خطاه في الإستدلال على العقائد بالنقل والعقل، وفي الإستعانة على ذلك بقضايا فلسفية ومسائل عقلية خاض فيها الفلاسفة وسلكها المناطقة، ولكنهم توسعوا في إيضاح ماأدلى به من الآراء وأثروه وأضافوا إليه الجديد الذي لايتناقض مع أصول مذهبه.

وهم يكونون عائلة واحدة، ولكنهم ينقسمون إلى متقدّمين أوّلهم الإمام الباقلاني، ومتأخرين او محدثين أوّلهم الإمام أبو حامد الغزالي حجة الإسلام بدون منازع، إذ هو أول من راجع طريقة الباقلاّني، وأول من دعا علماء الإسلام بالخصوص إلى الإستعانة، بمنطق أرسطو بدون تردد، لأنه رأى أن لاعلاقة له بما ورائيات اليونان، وأنه مشترك بين الناس كلهم، وأنه مقدّمة لكل العلوم، وأن العلوم كلها تقوم عليه، وأن من لايحيط به فلا ثقة بعلومه أصلا.

وهو أول من سلك في مجالات الفكر طرقا عجيبة أوصلته إلى اكتشاف الكثير من الجواهر الغالية في علوم الدين، واعدّت قريحته العلمية المؤمنة لتشرق في أفاق البلدان الإسلامية، وفي القرن الخامس للهجرة النبوية الشريفة بإحياء لعلوم الدين لازال ينتظر منذ ظهوره الى اليوم من علماء الإسلام كلهم إحياًءا جديدا له، و يعيد للإسلام نضارته في بلدان الإسلام ، ويعيد للمسلمين مكانتهم بين الامم والناس، ويوفّر للإنسانية كلها أسبابا صحيحة للطمأنينة والأمل.

إن الإمام أباحامد الغزالي بداية جديدة في الفكر الإسلامي والعالمي وهو الواضع في المدرسة الأشعرية لأسس الطريقة المهدية الهادية، التي عُرفت من بعده بطريقة الحكماء المحدثين والتي منها الإمام محمد بن يوسف ابن تلمسان العظيم...(1)

3 : - إن الإمام محمد بن يوسف السنوسي من علماء الدين بالحقيقة ولقد ولد بمدينة تلمسان سنة (832هـ/1428م) وتوفي بها سنة (895هـ/1489)، وكانت حياته فيما بين ذلك موقوفة على درس العلوم وتدريسها وعلى التعريف بالإسلام والدفاع عنه في أعلى المستويات بما كان له من المعرفة الواسعة بأساليب طريقة الأئمة المحدثين وتراثهم وبما حقّقه علماء هذا المغرب، وعلماء الاندلس الذين كانوا يترددون عليه، أو الذين نزحوا إلى بلدانه من الفتوحات في مجالات العلوم الدينية والدنيوية، وبما توصل اليه مشايخ مدينة تلمسان في عهد دولة بني زيان من التبريز في فهمها، والتقدم بها.

لقد كانت هذه المدينة التي يعتبرها« جورج مارسي» (Georges Marçais) معجزة دائمة،

(1) راجع ابن خلدون، المقدمة، ج3، القاهرة، 1960، ص1049-1042

أعظم أمصار المغرب أنذاك، كما يقول ابن خلدون عنها، إذ نفقت بها أسواق العلوم والصنائع، وصارت تضاهي أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافِيّة على الرغم مما كانت تعرفه بلدان المغرب من فوضى واضطراب في سياستها (2)، هذا ولقد كانت في طليعة التقدم الحضاري، وكان الإمام السنوسي وهو من ابنائها الذين لم يفارقوها، تاج فخارها في عصره كما يقول عنه الشيخ محمد بن منصور الثعالبي في قصيدة له يثني بها عليه.(3)

وإنه ليمكننا أن نتحقق ممّا نقوله اذا عرفنا كيف عاش بين أسوارها وأهلها، وعرفنا مقامه بين علمائها، وجهاده في سبيل الاسلام، والتعريف به وبعلومه بتدريسه لها، وتأليفه لكتب عدة في فنونها، وعرفنا بالخصوص ماهي أنوار حكمة الحداثة التي يلمع بها فكره، والتي تجعل منه فكرا تكشف أنواره تراث الماضي، لتستخلص كنوزه، وتتابع الحاضر لتصلح مفاسده، وتتطلع الى المستقبل لتفوز بفتوحاته.

4 : - إن أنوار الحداثة في فكر الإمام السنوسي كثيرة، وتعرب عن نفسها كما تراءت لنا، أولا وقبل كل شيء في تلك الأراء الأصيلة التي يدلي بهافي كتبه لدى عرضه لمسائل علم الكلام الشائكة، وفي منهجيته، وفي عقلانيته الصارمة، و في تفتّحه لتيارات الفكر مهما كان تعليمها، وفي معرفته العميقة بها، وفي محبته التي لا تتناهى للإسلام والمسلمين وفي تلك الروح التي يحس بها وهي تسري في جملة تآليفه حين نطلع عليها وفي دعوته بصرامة مشفقة إلى رفض الباطل مهما كان وجهه، إلى الابتعاد عن مراعيه المسمومة مهما كان جمال ألوانها، وفي هديه ببصيرة ورفق ومحبةإلى الحظيرة المأمونة التي يدل عليها كتاب الله ورسوله. المبعوث رحمة للعالمين، صلوات الله وسلامه عليه.

5 :- إن الإسلام في نظر السنوسي هو واجباته، والنظر الصحيح المؤدي إلى العلم بحقائقه وأباطيل غيره، هو أول واجباته لتكرّر الحث عليه في الكتاب والسنة حتى لكأنه مقصد من مقاصد الشريعة الأساسية التي لانقا ش فيها.(4)

وهو نظر يطلب من كل أحد حسب درجته ولايمكن أن يكون العلم الحاصل عنه هو الذي تتجلّى به حقائق الإسلام للإنسان، إلا إذا كان من جهة عن علم بالقواعد العقلية، والمراد به العلم. بوجوب الواجبات وجواز الجائزات وإستحالة المستحيلات، وكان من جهة أخرى عن علم باللسان

(2) عبدالله شريط ومحمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، قسنطينة، 1965، ص.106

(3)جمال الدين بوقلي حسن، الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد،الجزائر، 1985، ص .90

(4) الإمام السنوسي، شرح العقيدة الكبرى، ص. 19.

العربي، وهو علم اللغة وعلم البيان، لأن الإسلام الذي هو دين للبشرية كلها يستدعي أن يكون العقل الذي هو أحسن الأشياء قسمة بين الناس هو الحامل للناس عليه ويستدعي أن تكون اللغة العربية التي أنزل الله بها كتابه لحكم يطول شرحها هي الطريق إلى فهم حقائقه وأسرارها.

ولاشك أن كونها بهذه الصفة هو الذي جعل الإمام السنوسي على أن يعتبر الجهل بها من أصول الكفر ومن أسباب الانحراف عن الإسلام وحقائقه العالية وبالتالي من أسباب التخلف بالنسبة للمسلمين وللإنسانية معهم.

ويعني هذا أن التقدم بالحقيقة لايكون إلا عن طريق الإسلام وأن الإسلام بالحقيقة لايكون إلا عن طريق اللغة العربية وأن اللغة العربية لاتكون لنا إلا عن معرفة بعلومها التي تمكننا منها ومن أسرارها(5)

ويعني هذا أيضا أنّ المسلمين لايمكنهم أن يكونوا بناة للحضارة التي يدعو إليها الإسلام إلا إذا كانت لغة القرآن وهي العربية دون سواها، من طبيعتهم يتعاملون معها وبها بكل عفويّة فتثريهم ويثرونها، ويتقدمون بها وتتّقدم بهم بمايقومون به من الجهود الصادقة لاثرائها باستمرار وبما تكشفه لهم من كنوز أسرارها وينابيع حياتها.

إن هذا هو أول مانتعلمه من حداثة الإمام السنوسي، ومن حقنا أن لاننساه لأن تقدم المسلمين وتخلفهم عبر القرون لايفسّرهما إلا علمهم بهذه اللغة العزيزة أو جهلهم بها، والعلم معروف للعلماء وكذلك الجهل.

- هذا والشيء الثاني الذي نتعلمه منه هو أن الإسلام دين العقل، وأن العقل هوالذي يجب علينا ان نحتكم إليه في فهمنا لتعاليمه وتحقيقنا لها في الواقع.

ولهذا فهو يرى من جهة أن التقليد لايكفي في العقائد(6) وأن الإيمان بها لايُنْجِي الإنسان من العذاب يوم القيامة إلا إذا كانت الحجة العقلية القاطعة التي هي من مستواه هي التي أوصلته اليه، وجعلته يتلّبس به، ويحيا بأنواره ولأنواره، (7) وهو يرى من جهة أخرى أن الطريق إلى معرفة الحق بدءا ليست هي الكتاب والسنة، ولكنها النظر العقلي لأنه هو الذي يثبت حجتيهما وهو الذي يقع اللجوء إليه للدفاع عن الإسلام والمسلمين من أصحاب الآراء الباطلة وشبهاتهم. وضلالهم ولهذا فهو في نظره أعظم الأسلحة، التي يمكن أن تكون بأيدي المسلمين وأنجعها(8) ويرى من جهة أن عكوف علماء الأمة الراسخين على استعمال العقول للجهاد بها والرباط بها لايوازيه جهاد السيف ولايماثله

(5) الإمام السنوسي، المقدمات على هامش شرح صغرى الصغرى، بشرح البناني، القاهرة 1323هـ، ص33.

(6) الإمام السنوسي، شرح العقيدة الكبرى، ص29.

(7) نفس المرجع، ص32

(8) نفس المرجع، ص55.

رباط الثغور (9) ويرى من جهة أخرى أن الإهتمام بعلم الكلام وتعليمه للناس كلٍّ حسب مستواه، ولاسيما النساء منهم، والصبيان، وأهل البادية، ومن بعد عن سماع العلم المطلق من الناس والعبيد والإماء لأنهم ليسوا حيوانات عند مالكيهم لاتكليف عليهم، أمر يفرض نفسه على أولى الأمر من المسلمين وعلى المسلمين في كل زمان ومكان. ويعني هذا أن علم الكلام لايمكن الإستغناء عنه لأن صلاح الأمة وفسادها يتبعان حالته فيها ويعني هذا أيضا أن القول بحرمة النظر فيه لا أساس له ولايدلى به إلا الجاهل به، وهو من لايعرف أنه شرحٌ لأوامر الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة بالنظر والاعتبار، ومن لايعرف « أن القرآن الكريم مملوء بالحجج والبراهين والرّد على فرق الكفرة بعد حكاية أقوالهم وشبهها، وذكر مناظرة الأنبياء مع أممها ».(10)

ومن لايعرف لجهله، وجموده بسبب جهله، أن علماء الكلام من أهل السنة لم يزيدوا على نهج القرآن من حكاية الأقوال الفاسدة وشبهها، ثم ذكر البراهين القطيعة لإبطالها » (11) هذا وإذا كانوا قد أحدثوا مصطلحات تليق بضبط العلم لأهل الزمان مثل الجوهر والعرض، والكم والكيف وغيرها فَهُمْ على صواب لأنه لاحجر إجماعا في الأوضاع والعبارات والتصرّف فيها بحسب مايليق بمصالح الأقضية والنّازلات. وهي على كل حال مصطلحات لايستعملها إلاّ أصحاب الإختصاص من العلماء الذين يهتّمون بالعقيدة في مستوى أعلى من مستوى العامة بكثير، وينوبون عنها في العلم بها وبقضاياها لأنه فرض كفاية، يجب عليهم القيام به لكفاءتهم، ولايجب على غيرهم لأنهم ليسوا من مستواه بالكلية، « إن عقائد الإيمان ليست كلها ضرورية لأن منها مايفتقد الى دقيق النظر »، (57)، كما يقول الإمام السنوسي، ومنها مايحتاج إلى العلم الواسع والمقدمات.. الكثيرة والبراهين الطويلة لإثباته...

ونظرا إلى هذا ، فإنه يجب على الأمة أن يكون لها علماؤها في هذا المجال، ويجب عليها أن تكوّنهم بما يقتضيه العصر الذي تعيش فيه حتى يدافعوا عنها ويحموها من كل الرياح المسمومة التي قد تهب عليها، بما يمكنه أن يقضي على سلامتها وعلى وجودها.

6 هذا ولا نبالغ إذا قلنا بأن انحطاطنا المزري، نحن المسلمين في هذا العصر لاسبب له إلا بعدنا عن الإسلام، وأن بعدنا عن الإسلام لاسبب له إلاّ جهلنا باللغة العربية، وبعدنا عن العقل، وانسياقنا لأوهام المعرفة التي تحصل عن طريق الرياضة والمجاهدة وتصفية الباطن، أو عن طريق الإلهام، انسياقا قضى في مجتمعاتنا على العلماء بالحقيقة الذين هم في مستوى عصورهم

(9) نفس المرجع، ص38.

(10) نفس المرجع، ص50.

(11) نفس المرجع والصفحة

ومشاكلها بالمعرفة الراسخة للدِّين واسراره، وللدنيا ومايجري فيها.

إن علماء الكلام بالحقيقة يعوزوننا، أو ليست لما منهم الكفاية، ولانخطئ إذا اعتبرنا الإمام السنوسي وأمثاله، أكثر حداثة منا. ولانخطئ إذا حكمنا على نفوسنا بأننا أدنى مستوى منه ومن أمثاله، وهم من أبناء القرن الخامس عشر للميلاد، ونحن من أبناء القرن العشرين.

إن الحداثة لدى السنوسي بارزة، وهي لدينا مضطربة حائرة، لأنه لاأساس لها بيننا.

7 : - ويمكننا أن نتحقق مما نقوله إذا تابعنا استعراضنا لوجوه الحداثة الأخرى لديه وتحدثنا قليلا عن موقفه من المنطق.

إن المنطق هو أول ماترجم من العلوم اليونانية الى اللغة العربية، ولكن علماء الأمة لم يتقبّلوه واختلفوا في أمره لما ظهر لبعضهم فيه من الإرتباط بما ورائيات اليونان التي تخالف ماورئيات الإسلام.

والحقيقة أنه ليست له أية علاقة بها، وليست فيه أية مخالفة لعقائد الإسلام، لأنه مجرّد شرح لما هو حاصل للإنسان بالخلقة من تعريف وحكم وبرهان، أو إيضاح للقوانين التي يخضع لها الفكر في حركته ويعني هذا من جهة أنه فن يفهمنا كيف نفكر وماهي طريقة التفكير الصحيح.

حتى نلتزمه، وماهي طريقة التفكير الفاسد حتى نتجنبه ويعني، من جهة أخرى، أن كل الناس هم في حاجة إليه، سواء كانوا من العامة أو الخاصة، وأن كل الناس يطبقون قوانينه وإن كانوا على غير شعور منهم، سواء درسوه أولم يدرسوه، وسواء قَبلُوهُ أو رفضوه، وسواء كانوا من العارفين به أو من الجاهلين له.

إنه لصحيح أن أرسطو قد نَظَّمَ هذا الفَنَّ وأعطاه صورة خلابة لم تكن له من قبل ولكِن هذا لايعني أنه يجب أن يبقى على ماوضعه عليه أرسطو وأنه لايمكن إتمامه لأنه ولد تاما كمايقول كانط، ولايعني أيضا أيضًا أن العلماء وعلماء الأمة بالخصوص يمكنهم الاستغناء عن تعلّمه لأنه حاصل لهم بالفطرة، كما يقول الإمام تقي الدين بن تيمية. لأن جهل هؤلاء به لايمكن أن يكون أبدا في صالح الأمة التي هم مسؤولون عنها.

هذا وإذا كان الجهل به مقبولا في النهاية من العوام، فإنه لايمكن أن يكون مقبولا من العلماء مهما كانت الظروف.

وهو مايراه الإمام أبو حامد الغزالي إذ يقول عنه في بداية كتابه المستصفى بأنه «مقدمة للعلوم كلها، ومن لا يحيط به فلا ثقة له بعلومه أصلا»(12)

(12) المستصفى، القاهرة، ص7.

وهو مايراه أيضا الأئمة المحدثون من بعده ولاسيما الإمام فخرالدين الرازي من بينهم لما قام به من تجديد فيه، ولاهتمامه به على أنه فن مستقِل برأسه، لاعلى أنه آلة للعلوم.

وهذا هو مايراه أيضا العلماء الأوربيون الذين اهتموا به فيما بعد وطوّروه، وأثروه وأوصلوه إلى ماهو عليه اليوم.

8 - هذا، ولقد اشتغل الإمام السنوسي به وألّف فيه، وكان يرى أن تعليمه ضروري لأنه يسّهل للعقل [مشكل] الأنظار ويتّسع به مجال الفكر مع الراحة والأمن من الخطأ في سلوك مفاوز الاعتبار، كما كان يرى أن من يصرح بتحريمه هو من لامعرفة له بحقائقه.(13)

وهو إذ يتخذ هذا الموقف منه، يعرب بوضوح عن انتسابه لطريقة الحداثة التي وضع الإمام الغزالي أسسها، ويكشف بقوة عن حرصه على أن تكون الحداثة هي التي يمتاز بها المسلمون في عصره، لأنها أمارة حياة وتقّدم ونهوض، وليست أمارة موت وتخلف وجمود. إنها زينة الماضي المجيد للأمة في حاضرها، وشهادة حاضرها المزدهر لماضيها والأساس الراسخ لبناء مستقبلها على منجزات ماضيها وحاضرها وفتوحاتهما.

لقد كان الإمام السنوسي للحداثة في عصره كما يدل على ذلك حصره على سلامة لغة الأمة، ونصره للعقل ورفضه للخرافة وِلْلَتَمْشْدُق، وحضه على تعلم المنطق للزيادة في قدرات العقل، والتغلّبِ على صعوبات المعرفة.

9 : - ويدل على ذلك أيضا إلمامه بعلوم عصره، اذا كان رضي اللّه عنه إماماً في كل منها، وكانت له مشاركة جد معتبرة في التعريف بها ونشرها بين الناس وتواطيئها لتكون في متناولهم، والتقدم بها والإبداع في مجالاتها.

ويمكننا أن نتحقق مما نقوله إذا رجعنا الى مؤلفاته ورأينا كيف أنه يعتمد على كل العلوم المعروفة في زمانه لدى عرضه وشرحه ومناقشته لقضايا علم الكلام أو غيره من العلوم الأخرى التي تناولها بالدراسة والبحث. فنظريات المهندسين (14) والأطباء والفلاسفة (15) والفيزيائيين والرياضيين (16) وغيرهم حاضرة في عرضه لقضايا علم الكلام كنظريات يؤيد بها آراءه، أويناقشها أو يبّين بطلانها. وإذا كان هذا يدل على شيء فإنه يدل على أن هذا العلم في نظره يجب

(13) الإمام السنوسي، شرح المختصر في المنطق.

(14) الإمام السنوسي، شرح العقيدة الكبرى، ص13و14.

(15) نفس المرجع، ص146.

(16) نفس المرجع، ص327 ومابعدها

أن يكون في مستوى عصره، ومن عصره وفي مستوى التيارات الفكرية التي تسود فيه للإستفادة منها وإثرائها ولنقدها ومصارعتها إذا اقتضى الحال.

10 : هذا ولاشك أن رؤيته هذه لعلم الكلام هي التي تجعل قارئ كتبه يشعر بأنه لايتعلّم فيها علما منعزلا عن علوم زمانه ولاعلاقة له بها، ولكن علما يستطيع التحكم، به في واقعه، ويجعله يستعدّ لأخراه وهو يذكر دنياه، ويعيش في دنياه طبقا لتعاليم الدين الصحيحة، وهو لا ينسى أخراه، لأنه يتعلم منها أن الدنيا ماهي إلا الطريق الى الأخرى، وأن الأخرى ماهي إلا الغاية من الدنيا.

وهكذا فالكتب التي ألّفها الإمام السنوسي في علم الكلام جليلة القدر كثيرة الفائدة، إنها كتب تعرض قضاياه وتشرحها بوضوح ودقة وتناقشها بالطريقة المنتجة وتخرج منها بالرأي الذي ينشرح له الصدر ويطمئن له القلب.

وبالفعل فمنها ماهو للمبتدئين ومنها ماهو للمتوسّطين، ومنها ماهو للمنتهين والعلماء المختّصين.

وهي كتب يتجلّى لمن يطلع عليها ويعرف مادتها أنّ صاحبها يتصرف في مسائلها بمقدرة فائقة، وأنه يقدّم فيها لكل صنف من قرائه أعزّ ماجادت به قريحة الحكماء المحدثين عبر العصور، وبطريقة خاصة تناسب موضوع البحث ومستوى أصحابه ولاتهمل منه شيئا لابد منه لإدراكه والاقتناع به عن فهم وبنية.

وماعلينا إلا أن نرجع إلى مباحث الوجود والزمان والوحدة، والرؤية وعقيدة التثليث وغيرها في كتبه لنرى كيف يعالج أصعب القضايا بما يجعل الدارس لها يحيط بواقعها وبداياتها ونهاياتها، وكيف يتوصل إلى الإدلاء برأيه بعد طرحه للمشكلة، وتتبّعه لما تراه فيها الفرق الإسلامية وغيرها من يهودية ونصرانية وهّندية ومجوسّية، ولما يراه فيها الفلاسفة الإلهيون والطبيعيون سواء كانوا مسلمين أو غيرهم ومايراه فيها الإمام الأشعري وأتباعه

من المتقدمين أو المتأخرين من حكماء الحداثة لمناقشتهم وإثراء مايقولونه، ونقده لقبوله أورفضه.

إنّ الصفحات التي كتبها في عرضه لمسائل علم الكلام والبحث في مشاكلها صفحات غرّاء في تاريخ فكرنا الغنّي بجواهره الثمينة ودوره الغالية. وهي صفحات يدل كل مافيها على أن المعرفة لديه مغترفة من مصادرها الأولى ومأخوذة مباشرة عن كتابات عمالقتها، وليست مغترفة من مراجع ثانوية ومأخوذة عن مؤلفين من الدرجة الثانية أو مابعدها.

وماعلينا إلا أن نرجع مثلا الى الصفحات الأخيرة من كتابة شرح الكبرى (17) وكتابه شرح صغرى الصغرى (18) لنرى أن معرفته بنصوص التوارة والإنجيل دقيقة وشاملة، ولنرى كيف يثبت بواسطتها رسالة خاتم النبّيين والمرسلين وشمولها للبشرية كلها، وكيف يقيم الحجّة على اليهود والنصارى والملحدين بها عن طريقها، ولنرى كيف يدافع عن عصمة أنبياء بني إسرائيل ضدّ اليهود أنفسهم، وعن المسيح عليه السلام ضد النصارى إيمانا منه بأن الانبياء كلهم هم من عند الله وإيمانا منه بصحة رسالاتهم وبان إلاسلام لم يأت إلا مصدّقا لها، ومهيمنا عليها بما يمتاز به عنها من التّعاليم التي لاوجود لها فيها، والتي يقتضيها حال البشريّة في عهده.

إن الصفات التي تمتاز بها كتب الإمام السنوسي ويمتاز بها فكرة الموسوعي يمتاز بها تفّتحه للإستماع إلى أحاديث الفكر للمشاركة في بحث مطالبها، وترقّيه لتلقى نفحات الروح وتطلعه إلى الفوز بالتأييد الرباني، صفات تجعل منه إماما للمسلمين في عصره ومن بعد، وهي إمامة علمية ودينية تثبتها له، وعن جدارة، أعماله العلمية القيمة، وخدمته لهذا الدين بطريقة أصيلة لانعرفها لمن قبله، ولالمن بعده.

11 : - وهي طريقة يظهر لنا أن العلماء الذين اهتموا به وتعلّقوا بكتبه لم يتبّينوها على حقيقتها، ولم تّتضح لهم وأبعادها لأنهم لم يروا كيف يضفون على كتبه في العلوم المختلفة وحدة تجمع بينها، ولم يروا بالخصوص ماهي العلاقة بين كتبه الكلامية الكثيرة وكتبه في العلوم الأخرى، وبين كتابه المعروف " بالمقدمات" أو ماهو دور هذا الأخير، بين كتبه الكلامية وغيرها.

لقد رأى فيه ناس شرحا لشرحه لعقيدته الصغرى ، ورأى فيه ناس كتابا من بين كتبه يكرّر فيه بدون نظام مسائل سبق له أن تعّرض لها في كتبه الأخرى ورأى فيه ناس آخرون غير هذا (19).

والذي نراه أن كتاب السنوسي هذا، كتاب يهيمن على كتبه الأخرى كلها، سواء كانت كلامية أو غيرها، ويمّهد إليها ويجلو لنا قيمتها العليا، وهو كتاب محكم البناء ودليل ساطع على حداثته وإمامته، وريادته وفتوحاته وأبعاد فكره التي تتجاوز عصره بكثير.

هذا، ويتجّلى لنا مانقوله إذا عرفنا أن هذا الكتاب للإمام السنوسي يشبه كتابيين لعلمين من أعلام الفكر البشري، هما العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذي توفي سنة (1406) والفيلسوف الألماني " عمانويل كانط" الذي عاش في القرن الثامن عشر. لقد ألف الأول مقدمته بناءا على

(17) نفس المرجع، ص387-394

(18) شرح الصغرى الصغرى، ص33-44

(19) -Voir: Luciani, Les Prolégomènes Théologiques de Senoussi Texte arabe et traduction free, Alger, 1908, pp. I -V.

ماعرفه من دراسته لتاريخ الأمم والحضارات حتى تكون دليلا يهتدي به قارئ أعماله ومنهجًا يهتدي به الدارسون لعلوم التاريخ، وألف الثاني كتابه « المقدمات لكل ميتافيزيقا مستقبلة تريد أن تصبح علما »وكتابه تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق».

بناءًا على ماتوّصل إليه بحثه في العقل النظري والعملي، وفيما يقدر عليه في مجال العلوم والميتافيزقا فأبان في كتابه الأول أنواع الأحكام التي يدلي بها العقل في هذه العلوم وماهي الأحكام الخاصة بكل نوع منها، وأبان في الكتاب الثاني ماهو المبدأ العقلي الذي هو أساس الأحكام التي يدلي بها الضمير-الأخلاقي المشترك بين الناس. وهما كتابان يقدم فيهما مايلزم أن يعرفه دارس الفلسفة من المعلومات الأولية ليفهم قضاياها في جوانبها كلها بدون مشقة، وكذلك دارس الفلسفة بصفة عامة.

هذا ويمكننا إذا رجعنا إلى مقدمات الإمام السنوسي أن نرى أنها ذات علاقة بمؤلفاته كلها، وأنها مثل مقالة طريقته، التي لابد منها لفهمها والخوض في مباحثها بأقصى مايمكن من النجاح.

إن قضايا العقائد أو العلوم العقلية، وقضايا المعارف التجريبية والعلوم الشرعية تقتضي، منّا أن نعرف ماهو الحكم العقلي وماهو العادي والشرعي، ويقتضي منا علم الكلام، وهو العلم الذي اهتم به الإمام السنوسي أكثر من غيره بكثير لأنه أساس العلوم وثمرتها، أن نعرف ماهي المذاهب التي ظهرت عند المسلمين فيما يتعلّق بأفعال العباد سُنِّيَّةً كانت أوغيرها وماهي أنواع الشرك المنتشر بين الناس وماهي أصول الكفر الذي يقع الناس فيه، أن نعرف ماهي الموجودات وأقسامها، وماهي الصفات الأزلّية، وماهي صفات الرسل صلوات الله عليهم وسلامه.

هذا وبناء على ماقلناه فإننا نستطيع أن ننتقل من كتب السنوسي في العلوم المختلفة إلى كتبه الكلامية ومن هذه إلى كتابه المقدمات ومن المقدمات التسع التي تكوّن هذا الأخير الى مقدمته الأولى الخاصة بالأحكام لنصل إلى هذه النتيجة، وهي أن هذه الأخيرة هي التي تقوم عليها تآليفه، وأنه لايمكننا أن نفهم شيئا منها على حقيقته إلا بعد دراستها وهضم مافيها لأن كل شيئ لديه مبني عليها، وهومانجده عند كانط من بعده في الكتابين اللذّين ذكرناهما له.

وعند l'eon brunschircg من بعد كانط في بناء فلسفته الروحانية على ماأثبته في "كتابة جهة الحكم" "la modalité du jugement"

وهكذا فمقدّمات الإمام السنوسي ليست كتابا نابئا بين كتبه ولكنه درتها الكريمة وشمسها الساطعة التي تجلو لنا غوامضها وتجعل منها نظاما متكاملا، ومنهاج خلاص في عصر مضطرب كان المسلمون فيه جد محتاجين إلى خلاص.

12 : - إن الحداثة ليست مفهوما اجتماعيا أوسياسيا أو تاريخيا ولكنها حالة حضارية تمتاز بمعارضتها لما كان قبلها تحت ضغط الظروف والأوضاع الجديدة، ولهذا فهي لا تخضع لقوانين صوّرية مضبوطة ولكن إلى منطق خاص بها، أو خاصّ بكّل حالة لها. وهي إذ تشرف وتقوم على كل حال بوظيفة إصلاحية في المجتمع الذي تظهر فيه، ولاتكون حربا على السنّة السائدة به، واعراضا عنها، بل رجوعا إليها في أعزّما لديها وإثراءً لها بما تجعلها تستمر على حقيقتها وبما تحتوي عليه من القيم السامية والثروات الغالية.

ويمكننا إذا تتبعنا الوجوه التي ظهرت عليها في المجتمع العربي أن نرى لها وجهًا في عصر النهضة مع النزعة الإنسانية، ووجها في القرن السابع والثامن عشر من ديكارت وفلسفة الأنوار، ووجها في القرن التاسع عشر والعشرين مع البرجوازية والليبرالية، ومانتج عنها، ووجهًا أخيرا في نهاية هذا القرن مع ظاهرة الإنتاجيّة المبنية على العلم والتقنية بغية الانتقال من حضارة عمل وتقدم إلى حضارة استهلاك ولهو.(20)

13 : هذا، ويمكننا أن نتساءل من بعد هذا عن وجهها لدى الإمام السنوسي، لنرى ماهو مقامه في حضارتنا بالنسبة الى حضارة غيرنا، وماذا يمكننا أن نستفيد، نحن اليوم، من تراثه ومن حداثته ليتحقق لنا مانطمح إليه من المقام الكريم فوق هذه الأرض.

إن الحداثة التي يمتاز بها فكر الإمام السنوسي تقوم كما عرضناه فيما سبق من هذا المقال على المقام الذي تمنحه للّغة العربية في فهم النصوص الدينية والإعراب عما تحتوي عليه من التوجيهات والتعاليم السامية وعلى التمسك بالعقل لإثبات حّجيّة هذه النصوص من غير إفراط ولاتفريط في اعتباره أو تقديره، وعلى تعلم المنطق للزيادة في قدراته.

وتقوم على الاهتمام بنشر علم الكلام عن طريق النقل المؤيّد للعقل، وتعليمه للناس حسب مستوياتهم بالطريقة العقلية المنطقية لترسيخ العقيدة في نفوسهم والإرتقاء بهم إلى المستوى الحضاري الذي يدعو إليه الإسلام. وتقوم على الإرتقاء بعلم الكلام إلى مستوى علوم العصر والهيمنة الكاملة على هذه الأخيرة، وعلى معالجة كل موضوع منه بعمق، والإحاطة بالآراء المتعلقة به للبثّ فيه عن معرفة كاملة بجوانبه كلها، وعلى دراسة الديانات الأخرى والفرق والمذاهب والفلسفات في نصوصها الأصلية لإقامة حجة الإسلام عليها بالطريقة المثلى.

وتقوم على بناء صرح العلوم على علم الكلام، وبناء علم الكلام، ومعه كل العلوم على نظرية

(20) Encyclopédia universalis, Article: Modernité

الحكم، لأنها ترجع إليه في النهاية.

14: هذا، ويظهر لنا أن الإمام السنوسي قد نجح إلى حد كبير في وضع الأسس النظرية لمشروعه الإصلاحي، وأن المسلمين الذين اتخذوا كتبه الكلامية مصادر لدراسة عقيدتهم في بلدان الإسلام كلها، قد استفادو الكثير ممّا، جاءت به قريحته المؤمنة لما وجدوه فيها من المعارف التي يستقيم بها نظر العقل وتسمو بها حياة الروح.

ومع هذا فإن الحداثة التي وضع الإمام الغزالي أسسها، وحافظ عليها وأثراها من بعده أتباعه من علماء السّنة الأعلام ومنهم الإمام السنوسي، لم تعطِ ثمارها كلها. ولم تتّضح أبعادها على حقيقتها للمسلمين، ولذلك أخذوا يتوجّهون نحو الإنحطاط والجمود والتخلّف خطوة بعد أخرى في وقت كان الغربيون يتوجّهون فيه نحو النهوض بخطى حثيثة.

هذا ولعلّ أعزّ ماتعلّمه المسلمون من الإمام السنوسي، واستفادوه منه واستمّروا يتمسّكون به وسط كل العواصف التي هّبت عليهم هو أن كلمة الشهادة أو «لا اله الا الله محمد رسول الله" التي شرحها بما لم يَسْبِقْهُ أحدٌ إليه، هي أساس كل علم وعزّ، والوقاية المنيعة من كل انحراف وزيغ، والدافعُ القوي لكل هَوْل وغَزْوٍ، والباب المفتوح على كل الآمال الكبيرة...

ولهذا نجد إسمه حيًّا إلى اليوم على ألسنة المسلمين في بقاع الأرض كلها وإذا حاولنا أن نراه وهو في مدينة تلمسان في القرن الخامس عشر للميلاد. فإنه يظهر لنا بأننا سنراه كمناره جدٍّ عالية ترمي بأشعتها نحو الماضي المجيد فتكشف لنا عن علماء الإسلام الأعلام، وتُعَرِّفُنَاَ بهم وترمي بأشعتها نحو المستقبل القريب والبعيد فتكشف لنا أن ماوصل إليه فلاسفة الحداثة في أوروبا منذ عصر النهضة إلى l'eon brusechireg وأمثاله مرورًا بديكارت وكانط وأمثالها، فيه ملامح كثيرة من أفكاره التي كان يعلّمها لطلبته والتي كان يودعها كتبه المختلفة، ليدعو بها المسلمين في عصره وفي كل عصر من بعده إلى الدّين الذي هو عقل وإلى العقل الذي هو دين، وإلى العقيدة التي هي علم والى العلم الذي هو عقيدة وليَدْعُوَهُمْ للاستجابة إلى نداء الحداثة لأن الحداثة بمعناها الصحيح، هي الحياة وهي ثروة الماضي الذي لايمر وَعِزَّةُ الحاضر الذي لايرْغبُ عنه، وكنز المستقبل المفتوح على كل الأمجاد والآمال.

إن هذا هو ماتوحي له إلينا حداثة فكر الإمام السنوسي. وهي حداثة نَرْبحَ دائما إذا التفتنا نحوها، لأن فيها من المعالم مانستطيع أن نهتدي به إلى ساحل النجاة، وأن نرتقي به إلى قمم العزِّ في العالم المضطرب الذي نعيش فيه، وماذلك على الله بعزيز إذا صَدَقَتِ النّوايا.

المراجع

1- راجع ربن خلدون، المقدمة، ج3، القاهرة 1960، ص1049 1042
2- عبد الله شريط ومحمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، قسنطينة، 1965، ص 106
3- جمال الدين بوقلي حسن، الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، الجزائر، 1985،ص90
4- الإمام السنوسي، صرح العقيدة الكبرى، ص19
5- الإمام السنوسي، المقدمات عليهامش شرح صغرى الصغرى، بشرح البناني القاهرة 1323هـ، ص 33
6- الإمام السنوسي، شرح العقيدة الكبرى،ص 29
7- نفس المرجع، ص 32
8- نفس المرجع، ص 55
9- نفس المرجع،ص 38
10- نفس المرجع، ص 50
11- نفسالمرجع والصفحة
12- المستصفي القاهرة، ص 7
13- الإمام السنوسي، شرح المختصر في المنطق
14- الإمام السنوسي ، شرح العقيدة الكبرى، ص، 13،14
15- نفس المرجع ، ص 146
16- نفس المرجع، ص 327 ومابعدها
17- نفس المرجع،ص 394 387
18- شرح الصغرى الصغرى، ص 44 33
19- voir: luciani: les prolego,enes theologique de senoussi

TEXTE ARABE ET TRQDUTION. ALGER, 1908,PP I-V
·20ENCYLOPEDIQ UNIVERSALIS, ARTICL: MODERNITE'